منطق العلم ومواجهة الإلحاد

بقلم الأستاذ المهندس: أسامة حافظ عبدو

وقعَ النَّاسُ بالإلحادِ حينَ نظرُوا فَرَأوا نتاجَ العلومِ الْمَادِّيَّةِ الفيزيائيَّةِ والكيميائيَّةِ وأمثالِها، وغابَتْ عنهم معاني الرِّياضـــيَّاتِ الْمُجرَّدَةِ، وبلغَ الصِّـــــراعُ أشُـــدَّهُ حينَ قارَنُوا مَا قدَّمَتْهُ العلومُ الْمَـادِّيـَّةُ لهم من بَراهينَ ووقائعَ، وبينَ ما أمرَهُم بهِ كَهَنَةُ الدِّينِ من التَّقليدِ الأعمى والاتِّباعِ اللاواعي لأحكامِهم الوَضـعيَّةِ التي وَضَعوها زورًا وبُهتانًا بعدَ أن غيَّبُوا بخُبثِهم ومَكرِهم الدِّينَ الحقيقيَّ الْمُرتبطِ بالرِّياضيَّاتِ الْمُجرَّدَةِ.

إنَّ الإلحادَ لغةً هو الشـــَّكُّ بالرَّبِّ، والْمَيلُ عن طريقِ الحقِّ، وانتشـــارُهُ يعودُ للجهلِ بالدِّينِ الحقيقيِّ الْمُجرَّدِ. فالْمُلْحِدونَ يَحْتَجُّون بعدمِ وُجودِ داعٍ لرَبٍّ يُثبتُ وجودَهُ بالْمُعْجِزَاتِ، وقد وصـفَهُم الإمـام علي (م) بقولـه: (زَعَمَ الْمُلحـدونَ أنَّهم كـالنَّباتِ البَرِّيِّ ما لهم زارعٌ، وهل يكونُ بناءٌ من غير بـَانٍ؟ أو جِنـايـةٌ من غير جـَانٍ؟)، مع أنَّ الـدَّاعي موجودٌ وهو العقـلُ الـذي هو الْمِيزانُ بين الحقِّ والخلقِ، ومن الواجبِ على كلِّ باحثٍ واعٍ أن يَرُدَّ على أهلِ الإلحادِ بمَنطقِ الدِّينِ الحقيقيِّ الْمُجرَّدِ.

فمَنطقُنا العلويُّ لديهِ ردودٌ علميَّةٌ كثيرةٌ على الْمُلحدينَ، سـواءَ منهم مَن يسألُ سؤالَ استفهامٍ واســـترشـــادٍ، أو مَن كانَ على عِنَادِهِ وســـَابقِ رأيهِ. وَكَم مِن مُلحِدٍ طَرَقَ بابَنا وخرجَ منه إمَّا مُقتَنِعًا مسـترشـدًا، أو أكثرَ غيًّا وجَهلاً. فالجميعُ يعترفونَ بعَجزِهِم عن الوصـولِ إلى عُمقِ أسـرار نهجِ الإمام علي (م) العظيمِ الـذي لا يلومُ مَنِ طـالـَبَ بالدَّليلِ الْمَنطقيِّ ولم يَجِدْهُ فانحرفَ، لأنَّ ما طالبَ بهِ هو حقُّهُ الطَّبيعيُّ والْمَشـروعُ. ولكن لنســألْ هذا الْمُلحِدَ: إلى أيِّ حَدٍّ ســتســتمرُّ العلومُ الْمَادِّيَّةُ في تقديمِ التَّعليلِ والتَّفســـيرِ لكَ؟ هل التقدُّمُ العلميُّ الْمَادِّيُّ لا نهائيٌّ وبلا حدودٍ؟ أم أنَّ هناكَ حدودًا لا يمكنُ للعلومِ الْمَادِّيَّةِ تَجاوزُها؟ ألا يمكنُ اكتشافُ عوالمَ جديدةٍ مختلفةً كُلِّيًّا عن مَدَاركِكَ وحتَّى عن قوانينِ العلومِ الْمَادِّيَّةِ الحاليَّةِ؟

العلومُ الْمَاديَّةُ لا تستطيعُ أن تصلَ إلى معرفةٍ كاملةٍ ونهائيَّة، ولا يمكنُ أن تفسِّرَ حَدَثَ ظهورِ الكونِ والْمَكـانِ وخلقِ الزَّمـانِ والْمَواد، إنَّما هناك نظريَّاتٌ بشـــريَّةٌ علميَّةٌ بَحتَةٌ مختلفةٌ حول تكوُّنِ الْمَجرَّاتِ والمجموعاتِ النَّجميَّةِ والثـــُّقوبِ السَّوداءِ وخلقِ الدَّيناصـورات والحشـرات وعالَمِ البحارِ

وصــولاً إلى ظهورِ الإنســانِ الأوَّلِ، إلاَّ أنَّ النظريَّاتِ لا تعني البرهانَ أبدًا، خاصــَّةً أنَّها جميعًا غيرُ مُثْبَتَةٍ، ومُتضاربة فيما بينها، فمعظمُ ما يحاولُ العلماءُ الْمَاديُّونَ معرفَتَهُ يتعلَّقُ بحوادثَ ماديَّةٍ ضائعةٍ أو افتراضيَّةٍ، ولم يتَّفقُوا حتَّى اليومَ حولَ شكلِ الأرضِ إن كانت كرويَّةً أو بيضويَّةً أو مُسطَّحةً أو ربَّما يخرجونَ علينا بنظريَّاتٍ أخرى مع الزَّمنِ.

هذا العجزُ الْمَاديُّ الواضــحُ جعلَ بمقابلِ الْمُلحدينَ قســمًا من النَّاسِ يزعمونَ أنَّهم مؤمنونَ، لأنَّهم يُجمِعونَ على وجودِ ربٍّ لهـذا الكونِ ويُكثِرُونَ من ارتيادِ دُورِ العبادةِ بلا إقرارٍ، ورَفعِ كلماتِ الصَّلواتِ بلا تفكُّرٍ، والتَّقَرُّبِ بالقرابينِ بلا يقينٍ، وإيقادِ الشُّموعِ وإظهارِ كافَّةِ مظاهرِ التَّديُّنِ الصَّارخِ، ولكنَّهم مُصـابونَ بالعَرَجِ الدِّينيِّ، لأنَّ سـادَتَهم عَمِلُوا على تَعويمِ وتَعميمِ الشِّركِ والإنكارِ والسَّيطرةِ من خلالِهمـا على الجميعِ، فـأقـاموا لهم هيـاكلَ وثنيَّةً للعبادةِ خاليةً من الْمَعرفةِ اليقينيَّةِ، تَحوَّلَ فيها أتباعُهم إلى عابدينَ لأصـنامِ الجهلِ وأصـنامِ الْمَالِ وأصـنامِ السُّلطةِ مُشـركينَ بها دونَ أن يَعلَمُوا أنَّهُم على خطـأ. وهكـذا أصــبح هؤلاء يزعمونَ أنَّهم يعبدونَ الرَّبَّ مع أنَّهم لا يَعرِفونهُ، فوقعَ فيهم قولُ سيِّدنا المسيح (ع): (إنَّ كثيرين يَغتسـلونَ ويَذهبونَ للصَّلاةِ، وكثيرينَ يصومونَ ويَتصدَّقونَ، وكثيرين يُطالِعونَ ويُبَشِّرونَ الآخرين، وعاقِبَتُهُم مَمقوتَةٌ عند اللهِ، لأنَّهم يُطَهِّرونَ الجسدَ لا القلبَ).

هنا قد يسـألُ سـائلٌ نفسَـهُ على سبيلِ التَّعلُّمِ والْمُحاكاةِ الْمَنطقيَّةِ: هل الرَّبُّ يُشبهُني؟ لِمَاذا خلقَني؟ وهل يُعقَلُ أن أعرفَ جَوهرَهُ؟ أليسَ من الْمَنطقِ أنَّي لو عَلمتُ جوهرَ الرَّبِّ لأصــبحتُ رَبًّا، لأنَّ جوهرَ الرَّبِّ أكبرُ من طاقةِ علمي، وأكبرُ من طاقةِ استيعابي؟

وهكذا يبقى السَّالكُ في بحثٍ دَؤوبٍ لا يَنضَبُ عن معرفةِ أسرارِ الخلقِ والتَّكوينِ، والغَورِ في أعماقِ الوسائلِ الحسِّيَّةِ والعقليَّةِ على أنواعِها، لكنَّهُ يتوقَّفُ عن البحثِ في ماهيَّةِ الرَّبِّ الذي أوجَدَهُ: مَا هُوَ؟ ومَن هُوَ؟ ومِن أينَ أتَى؟ لأنَّ الجوابَ في قولِ الإمام علي (م): (ما نَهَى اللهُ العبدَ عن شَيءٍ إلاَّ وقد عَلِمَ أنَّه يُطيقُ اجتِنَابَهُ، وما أمرَهُ اللهُ بشـيءٍ إلاَّ وقد عَلِمَ أنَّهُ يَستطيعُ فِعلَهُ، لأنَّهُ ليسَ مِن صِفَتِهِ تَكليفُ العبادِ ما لا يُطيقونَ).

إذنْ لا يكونُ تفكيرُ السَّالكِ في الْمَاورائيَّاتِ الغـيبيَّةِ، بل هو مُلازِمٌ لِلمَعرفةِ فقط، إذ لا يجوزُ الإيمانُ إلاَّ بعدَ الإقرارِ، ولا الإقرارُ إلا بعدَ الْمَعرفةِ، وما السَّـمْعُ والقبولُ عند السَّـالكِ إلاَّ بعدَ بَيِّنَةٍ، لأنَّ منطقَنا العلويَّ قائمٌ على السَّيرِ على طريقِ الاسـتدلالِ وإقامةِ البرهانِ، لا على الخبطِ العشـوائيِّ الكثيرِ في هذه الأيَّامِ. ولا يَفهَمَنَّ أحدٌ أنَّنا ننكرُ العلومَ بكافَّةِ أنواعِها، لكنَّنا لا نقبلُ بتســطيحِ الأمورِ

العظيمةِ والعميقةِ وتحويلِها إلى مجرَّدِ مادَّةٍ قياسيَّةٍ زائلةٍ لا تقومُ بنفسِها، ولا نقبلُ نظريَّاتٍ تقومُ على سطحيٍّ زائلٍ لأنَّها سطحيَّةٌ زائلةٌ، بل نقبلُ العلومَ غيرَ القياسيَّةِ التي تحملُ الدَّلائلَ الصَّحيحةَ والبراهينَ الدَّقيقةَ.

هذا التَّفكيرُ الدَّقيقُ يَدعو إلى نَيلِ الحقائقِ الْمُتعلِّقةِ بأسرارِ الخلقِ والتَّكوينِ (إنْ كانَ لأحدٍ أذنانِ للسَّمعِ فليَسمَعْ) كما قال سيِّدنا المسيح (ع). وأحسنُ العَمَلِ هُوَ البَحثُ عن معرفةِ الرَّبِّ، والتَّفَكُّرُ فيما خَلَقَ ولِمَ خلقَ؟ حيث سُئلَ الإمام علي (م): هل خلقَ اللهُ الخلقَ لحاجةٍ أم لغيرِ حاجة؟ فأجاب: (اعلمْ أنَّ اللهَ خلقَ الخلقَ لا لِحَاجَةٍ، بل أوجَدَهم وُجُودَهم إنعامًا وإفضالاً، فإنْ قيلَ: بما أنعمَ اللهُ عليهم؟ فَقُل: بإظهارِهم من العَدَمِ إلى الوجودِ).

وحولَ هذا الخلقِ قال الإمام علي (م): (أيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى لَمَّا خلقَ الخلقَ أرادَ أن يكونوا على آدابٍ رفيعةٍ وأخلاقٍ شريفةٍ، فَعلِمَ أنَّهم لن يكونوا كذلك إلاَّ بأنْ يُعَرِّفَهم ما لهم وما عليهم، والتَّعريفُ لا يكونُ إلاَّ بالأمرِ والنَّهي، والأمرُ والنَّهي لا يَجتمعانِ إلاَّ بالوعدِ والوعيدِ، والوعدُ بالتَّرغيبِ والوعيدُ بالتَّرهيبِ، والتَّرغيبُ بما تَشتَهيهِ أنفسُهم وتَتَلَذَّذُهُ أعيُنُهم، والتَّرهيبُ بِضِدِّ ذلكَ)، وأكَّدَ أنَّ العملَ الصَّالحَ مِنَ العبدِ فِعلُهُ، والرَّبُّ بِهِ أَمَرَهُ، وعَمَلُ الشَّرِّ من العبدِ فِعْلُهُ، والرَّبُّ عنه نَهَاهُ.

الأستاذ المهندس: أسامة حافظ عبدو